الفجر الصادق

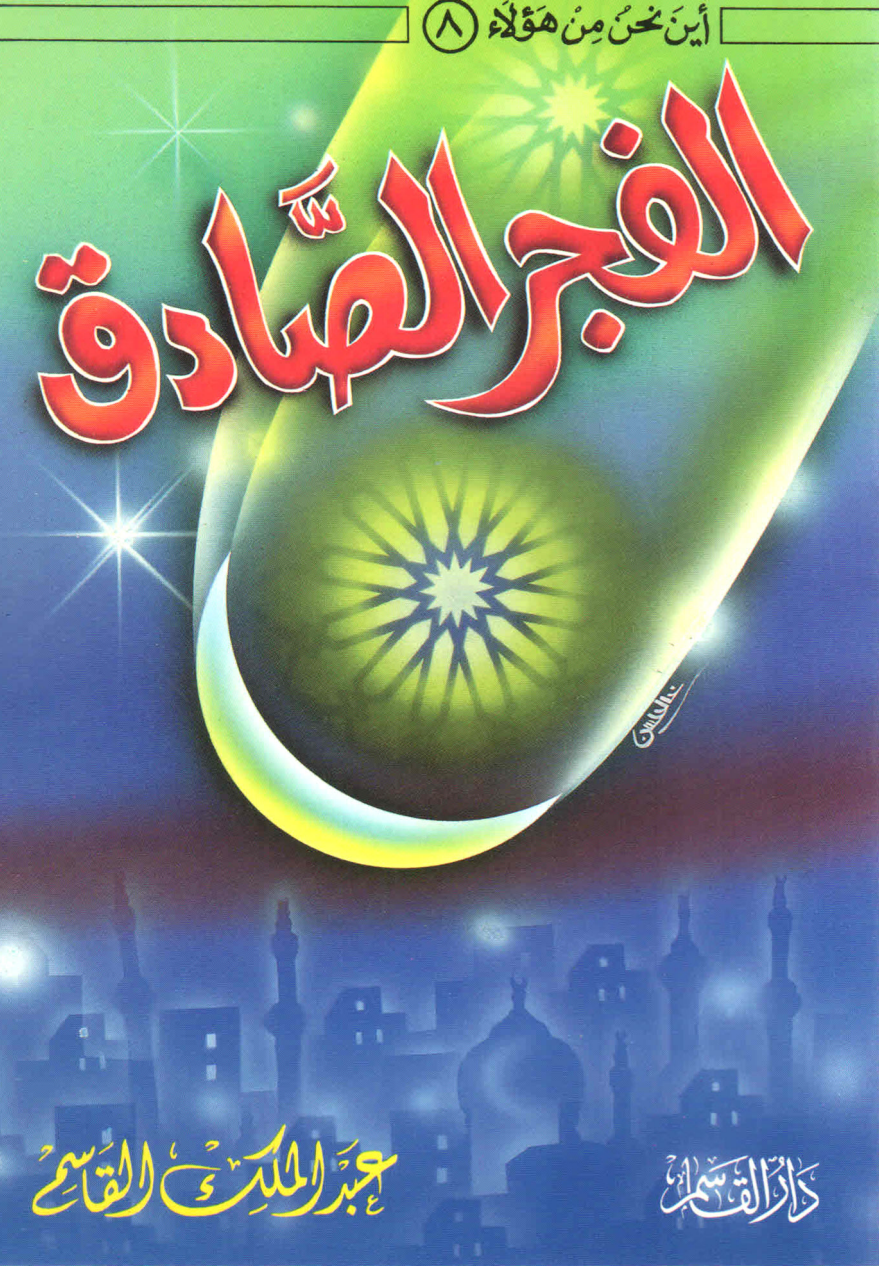

عبد الملك القاسم

دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن.
الفجر الصادق. ـ ط ٢ ـ الرياض.
١٠٤ ص؛ ١٢ × ١٧ سم
ردمك: ٠ - ٠٠٦ - ٣٣ - ٩٩٦٠
١- التوبة (الإسلام) ٢- الوعظ والإرشاد
أ- العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٧/١٢٠٤

رقم الإيداع: ١٧/١٢٠٤
ردمك: ٠ - ٠٠٦ - ٣٣ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

العنوان: الرياض، طريق الملك فهد جنوب شارع التليفزيون
للمراسلات: الرمز البريدي ١١٤٤٢ ـ ص.ب ٦٣٧٣
الرياض هاتف ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس ٤٠٣٣١٥٠
فرع جدة هاتف ٦٠٢٠٠٠٠ فاكس ٦٣٣٣١٩١
فرع بريدة هاتف ٣٢٦٢٨٨٨ فاكس ٣٦٩٢٨٨٨
* البريد الإلكتروني sales@dar-alqassem.com
* موقعنا على الإنترنيت www.dar-alqassem.com

مدخـــــل

قال أحمد بن عاصم: هذه غنيمة باردة، أصلح مابقي من عُمرك، يُغفر لك مامضى.

المقدمـــة

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين

وبعـــد:

أقـدم للأخـوة القراء الجزء الثامن من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان «**الفجر الصادق**» وهو زمن مشرق ناصعٌ في حياة المسلم.

إنه فجرٌ صادق.. وهل هناك أصدق ممن صدَّق الله وصَدق في عودته؟

إذا سلك من مسالك الشيطان مدخلاً واجلب عليه بخيله ورجله، تذكر منتبهاً من الغفلة مستدركاً للتوبة.

إنها إشراقات تُبدد ظلام المعصية وتزيل غشاوة الذنب.

فجرٌ تبدأ معه رحلة العودة إلى الله بقلوب منكسرة،

ودموع منسكبة وجباه خاضعة . . حتى تطأ الأقدام أولى عتبات الآخرة . . ورجاء الآية يخاطب شغاف القلوب **﴿نبأ عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾** .

وحديث الرسول ـ ﷺ ـ ملء السمع والبصر: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**» .

جعلنا الله ممن إذا أذنب إستغفر وإذا زل تاب وثاب ورزقنا الاخلاص في القول والعمل .

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

خلق الله الإنسان للطاعة والعبادة، وفتح له باب التوبة والإنابة، يستدرك بها ذنوبه، ويمسح بها تقصيره، ويصلح بها زلاته.

فالتوبة واجبة على الدوام، لأن الإنسان لا يسلم من معصية، ولا يخلو من نقص.. إنما الخلق يختلفون في المقادير.. وقد أمر الله ـ عزّ وجل ـ بالتوبة، فقال: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾. [البقرة: ٢٢٢].

وفي آيات كثيرة حثٌّ على التوبة والرجوع والأوبة..

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾. [النور: ٣١].

وهذا نبي الهدى والرحمة يقول في الحديث الشريف: «**يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»[١].

---

(١) رواه مسلم.

وقال ـ ﷺ ـ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابين**»[١].

وأنظر إلى عظيم فضل الله ـ جل وعلا ـ على التائب العائد قال ـ ﷺ ـ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[٢].

وأبـواب السمـاء مشرعة للتائبين، مفتوحة للعائدين. فإن هناك من يعرض عن هذه الأبواب.. ويترك هذه الأسباب قال ـ ﷺ ـ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**» قالوا: يارسول الله! ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**»[٣].

فهـذا الحـديث بشارة لجميع المسلمين بالجنة إلا صنفاً منهم لا يريد دخـولهـا، لا زهداً فيها؛ ولكن جهلاً بالطريق المـوصلة إليهـا، وتراخياً وتكاسلاً عن دخولها وتفضيلاً لهذه المتع الدنيوية الزائلة على تلك النعم الخالدة في الجنة[٤].

يا من يذنب ولا يتـوب، كم قد كتبت عليك ذنوب؟ خل

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم.
(٢) رواه ابن ماجه والطبراني.
(٣) رواه البخاري.
(٤) واحات الإيمان: ١/١٢٥.

الأمل الكذوب، فرب شروق بلا غروب، وآسفي أين القلوب؟

تفرقت بالهوى في شعوب ندعوك إلى صلاحك ولا تؤوب واعجبا الناس ضروب، متى تنتبه لخلاصك أيها الناعس؟ متى تطلب الأخرى يا من على الدنيا تنافس؟ متى تذكر وحدتك إذا انفردت عن موآنس؟ يا من قلبه قد قسا وجفنه ناعس، يا من تحدثه الأماني.. دع هذه الوساوس.

وانظر إلى قول **الحسن** ولعل لنا نصيب منه: يا ابن آدم ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة[1].

إني بُليت بأربع يرمينني
بالنبل قد نصبوا علي شراكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى
من أين أرجو بينهن فكاكا
يارب ساعدني بعفوٍ إنني
أصبحت لا أرجو لهّن سواكا[2]

قال **حميد الطويل**: لبعض إخوانه: عظني، فقال:

---

(١) الزهد: للامام أحمد، ٢٤٢.
(٢) التذكرة: ٤٧٥.

ياأخي، إذا عصيت وظننت أنه يراك فقد تجرأت على عظيم، ولكن بجهلك تظن أنه لا يراك.

وقال رجل لوهيب بن الورد: عظني؟ فقال: اتقي أن يكون الله أهون الناظرين إليك[١].

أخي المسلم: لو لحظك مسئول أو رجل حسبه وأنت تهم بفعل زلةٍ لتوقفت تعد الخطى وتستثقل فعل المعصية، كيف والله ـ جل وعلا ـ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. مطلعٌ على كل صغيرة وكبيرة. ولكنها قسوة القلوب وفساد النفوس.. وما ضرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وماخُلقت النار إلا لاذابة القلوب القاسية، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، فإذا قسا القلب قحطت العين.

اخي الحبيب:

قسوة القلب من أربعة أشياء: إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة، كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ.

---

(١) جامع العلوم: ١٩٥، حلية الأولياء: ٨/١٤٢.

ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته، فالقلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها، القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها. شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهورة[١].

وذاك الداء وهذا الدواء ولكن:

يا من تمتع بالدنيا وزينتها
ولا تنام عن اللذات عيناه
أفنيت عمرك فيما لست تدركه
تقول لله ماذا؟ حين تلقاه[٢]

كان الحسن كثيراً مايقول: يا معشر الشباب عليكم بالآخرة فاطلبوها، فكثيراً رأينا من طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحداً طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا[٣].

وليس للعبد ـ يا أخي ـ مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا

---

(١) الفوائد: ١٢٨.
(٢) صفة الصفوة: ٢/٥١٦.
(٣) الزهد للبيهقي ٩.

للمحب قرار إلا يوم المزيد، اشتغل به في الحياة يكفيك ما بعد الموت[١].

تعـصـى الإلـه وأنـت تظهـر حبـه
هذا لعـمـري في الـقـيـاس بديـع
لو كان حبـك صادقـاً لأطـعـتـه
إن الـمـحـب لمـن يُحـب مطيـع[٢]

أخـي المسلـم:

القلب يمـرض كمـا يمـرض البـدن. وشفـاؤه في التـوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى[٣].

فإياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً، ولأ يامك وأنفاسك أمداً، ومن كل ما سواه بُدّ، ولا بُدّ لك منه[٤].

سبحـان الله رب العالمين: **لو لم يكن في ترك الذنوب**

---

(١) الفوائد: ٩.
(٢) الزهد للبيهقي: ٣٢٩.
(٣) الفوائد: ١٢٩.
(٤) الفوائد: ١٢٩.

والمعاصي إلا إقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجّار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب، أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس، انتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظُلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبُعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصغر

الـدنيا في قلبـه، وكبـر الآخـرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكـاتبين به ودعـاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمـانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا.

أما في الآخرة.. فإنه إذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، ينعم فيها إلى يوم القيامة.

فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحرِّ والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين[١].

يا أيهـا الـغـافـل جد في الـرحيـل
وانـت في لهـوٍ وزادٍ قليـل

---

(١) الفوائد: ١٩٨ باختصار.

لو كنـت تدري ما تلاقـي غداً
لذبـت من فيض البـكـاء والـعـويـل
فأخـلص الـتـوبـة تحـظى بهـا
فمـا بقـي في الـعـمـر إلا الـقـلـيـل
ولا تنـم إن كنـت ذا غبـطةٍ
فـإن قدامـك نـوم طويـل[1]

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إقلوا الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله ـ عزّ وجل ـ بشيء أفضل من قلة الذنوب.

وقال مورق العجلي: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا مثل رجل في البحر على خشبة فهو يدعو: ياربّ، ياربّ، لعل الله ـ عزّ وجل ـ أن ينجيه[2].

ولهذا الأمر ومن شدة الخوف وطمعاً في ماعند الله.

كان الرسول ـ ﷺ ـ سيد الكل، ثم أنه قام حتى ورمت قدماه..

وكان أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ شجي النشيج(*).

---

(١) الزهر الفائح: ١٩.

(٢) حلية الأولياء: ٢/٢٣٥، صفة الصفوة: ٣/٢٥٠.

(*) يبكي بكاءً مؤثراً تتقطع له النفس.

وكان في خد عمر ـ رضي الله عنه ـ خطان من آثار الدموع.

وكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يختم القرآن في ركعة.

وكان علي ـ رضي الله عنه ـ يبكي بالليل في محرابه حتى تخضلَّ لحيته بالدموع ويقول: يا دنيا غري غيري!

وكان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد فلم تفته صلاةً في جماعة أربعين سنة[١].

فيا أخي الكريم ـ **أطلب قلبك** في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يَمنَ عليك بقلب، فإنه لا قلب لك[٢].

فحيهلا إن كنت ذا همةٍ فقد
حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لك علم، فشمر إليه فقد أمكن التشمير واجعل سيرك بين مطالعة

---

(١) صيد الخاطر: ١٠٦.

(٢) الفوائد: ١٩٥.

منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير[١].

اتـخـذ طاعـة الإلـه سبـيـلا
تجـد الـفـوز بالـجـنـان وتـنـجـو
واتـرك الإثـم والـفـواحـش طُرًّا
يؤتـك الله ماتـروم وتـرجـو[٢]

قال **يحيى بن معاذ**: من أعظم الاغترار عندي.. التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله ـ عزّ وجل ـ مع الإفراط.

ترجـو النجـاة ولم تسلك مسـالكهـا
إن الـسفينـة لا تجـري على اليبس[٣]

قال يحيى بن معـاذ ـ رضي الله عنـه ـ: من أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار إنصرف عن السيئات.

---

(١) عدة الصابرين: ٣٣٨.
(٢) طبقات الحنابلة: ٤/١٧٧.
(٣) تزكية النفوس: ١١٤.

ونحن في غفلةٍ.. ونجانب باب التوبة.. حالنا كما قال **الحسن** عندما سأله رجل: يا أبا سعيد: كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ماظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر، فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسان منهم بخشبة؟ علي أي حال يكون؟ قال الرجل: على حالٍ شديدة، قال الحسن: حالي أشد من حالتهم[١].

عيني هلا تبكيان على ذنبي
تناثر عمري من يدي ولا أدري
أنت في غفلة وقلبك ساهٍ
ذهب العمر والذنوب كما هي[٢]

أخي.. أجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجلٍ، لا يأمن سوء مغبته. فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها، ولم ينظر في حلال وحرام، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما إلتذ. ولقي من مرير الحسرات

---

(١) الإحياء: ٤/١٩٧.
(٢) مكاشفة القلوب: ٣٤.

ما لا يقاومه ولا ذرة من كل لذة، ولو كان هذا فحسب لكفى حزناً، كيف والجزاء الدائم بين يديه.

فالـدنيا محبـوبة للطبع لا ريب في ذلك، ولا أنكر على طالبها ومؤثر شهواتها. ولكن ينبغي له أن ينظر في كسبها ويعلم وجه أخذها، لتسلم له عاقبة لذته، وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار.

وهل عُدَّ في العقلاء قط من قيل له: اجلس في المملكة سنة ثم نقتلك؟ هيهات بل الأمر بالعكس، وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة بل سنين ليستريح في عاقبته[١].

قال **الحسن**: والله ما صدّق عبـد بالنـار إلا ضاقت عليه الأرض بمـا رحبت، وإن المنـافق لو كانت النـار خلف هذا الحائط لم يُصدق بها حتى يتجهم عليها.

تصـل الـذنـوب إلى الـذنـوب وتـرتجي
درج الـجـنـــان لدى الـنعيم الخـالـد
ولـقـد علمـنـا أخـرج الأبـويـن من
ملكـوتـهـا الأعـلى بذنـب واحـد[٢]

---

(١) صيد الخاطر: ٢٣٩.
(٢) الجواب الكافي: ١٤٢.

ونحن نسير في هذه الدنيا.. لا نرى لها نهايةً ولا للحياة توقف حتى يفجأنا أمر الله وقدره.. نؤخر التوبة.. ونؤجل العمل..

* قال **الحسن البصري**: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أُحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل[١].

وقال **الربيع بن خيثم** لأصحابه: تدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الإستغفار، والشفاء أن تتوب فلا تعود[٢].

وحال الكثير منا اليوم كما قال عنه **أحمد بن حرب**: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس، ثم لا يؤثر الجنة على النار[٣].

نعرف اليوم القائض من المعتدل والبارد من الحار.. ونشكو إلى بعض من حر هذا اليوم وشدته.. رغم أننا تحت ظلال وارفة.. ومكيفات باردة.. ولا نفكر في نار حرها شديد وقعرها

---

(١) الجواب الكافي: ٣.

(٢) صفة الصفوة.

(٣) الإحياء: ٤/٥٦٨.

بعيد.. وها هو باب التوبة مشرع الأركان فأين نحن منه؟!

يقـول **إبـراهيم بن أدهم**: من أراد التـوبـة فليخـرج من المظالم، وليدع مخالطة الناس؛ وإلا لم ينل ما يريد[١].

وحذر **أبو الوفاء بن عقيل** بقوله: إحذر ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثـة دراهم، وجلد الحـد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة ناراً على من غلّها وقد قتل شهيداً[٢].

فلنسابق أخي إلى التوبة والأوبة.. باب مفتوح مُشرع لا يردنا حاجب ولا يُقصينا طالب.. بل يفرح الله بتوبة أحدنا.. ويتجاوز عن سيئاته..

قال **أبوبكر بن عبدالله المزني**: من مثلك يا ابن آدم؟ خلي بينك وبين المحراب والماء، كلما شئت دخلت على الله ـ عزّ وجل ـ ليس بينك وبينه ترجمان[٣].

أخي.. اعلم أن الجزاء بالمرصاد إن كانت حسنة أو كانت سيئة، ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد

(١) السير: ٧/٣٨٩.
(٢) الجواب الكافي: ٦٩.
(٣) صفة الصفوة: ٣/٢٤٩.

سومح، وربما جاءت العقوبة بعد مدة[١].

خل الذنوب صغيرها
وكبيرها فهو التقى
وأصنع كماشٍ فوق أرض
الشوك يحذر مايرى
لا تحقرن صغيرة
إن الجبال من الحصى[٢]

قال أبو حازم سلمة بن دينار: قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك[٣].

أخي التائب:

الشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزقوم والعذاب المقيم[٤].

---

(١) صيد الخاطر: ٥٩٣.
(٢) جامع العلوم والحكم: ١٩٢.
(٣) حلية الأولياء: ٣/ ٢٣١.
(٤) الفوائد: ٢١٥.

فسارع أخي بخطى العزيمة.. وارفع نفسك الكريمة.. فإنها نفسٌ كالطفل تُقبل وتدبر وتعصي وتُطيع.

والنفس كالـطفـل إن تهمله شب على
حب الـرضـاع وإن تعـظمـه ينـفـطم

إن ترك الشهوات لله.. وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته، فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به، لا تحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهـل العبـادة والزهد والعلم، فإن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخـائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقراً دون الله، والعز ذُلا دونه، والذل عزًّا معه، والنعيم عذاباً دونه، والعذاب نعيماً معه[١].

عن طلق بن حبيب قال: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تُحصى، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين[٢].

---

(١) الفوائد: ٢٥٢.

(٢) السير: ٤/٦٠٢.

وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله، ماعصوا الله عزّ وجل[١].

فوا عجباً كيف يُعصى الإله
أم كيف يجحده جاحدُ
ولله في كل تحريكة
وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شي له آية
تدل على أنه واحد[٢]

كان وهب بن الورد يقول: خِفِ الله على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قربه منك.

أخي المذنب ـ وكلنا كذلك ـ . . قال هلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت[٣].

إنه الله الواحد الأحد مدبر الكون خالق كل شيء . .

---

(١) الإحياء: ٤/٤٥١.
(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٢٥.
(٣) الجواب الكافي: ٩٥.

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها
والمخ في تلك العظام النحل[١]

سبحان الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.. لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.. خلق كل شيء وأحصى كل شيء..

قال مطرف: من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماالله عنده.

وكان **الحسن بن عبدالعزيز** يقول: من لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع[٢].

وتأمل أخي الحبيب في قول **ابن عباس**: خوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا فعلته[٣].

---

(١) شذرات الذهب: ٤/١٢١.
(٢) طبقات الحنابلة: ١/١٣٥.
(٣) جامع العلوم والحكم: ٤٣.

إذا ماخلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوت ولكن قل عليّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غداً للناظرين قريب[1]

قال **الحسن**: إن المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه لله ـ عزّ وجل ـ وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يَفَجُؤ الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات، هيهات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا مالي ولهذا؟ والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله، إن المؤمنين قومٌ أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله

(١) الإحياء: ٤/٤٢٢.

ـ عزّ وجل ـ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه[١].

ولـو تفكرنـا في ذلك وأنزلنا أنفسنـا موقف الحسـاب لعملنـا ولتبنا إلى الله ـ عزّ وجل ـ فنحن في زمن التوبة.. وفي طريق الأوبة.. في دار أفسح الله لنا فيها أفلا نعود من قريب!؟

قال وهب بن منبه: ماطالت فكرة امريء قط إلا علم، وما علم امرؤ قط.. إلا عمل[٢].

فلتكن أخي! من أهل العمل، ولا تكن من أهل الأمل..

فإن أعجب العجائب سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك عما قد خبيء لك، تغتر بصحتك، وتنسى دنو السقم. وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم، لقد أراك مصرع غيرك، وأبدى مضجع سواك قبل الممات مضجعك[٣].

هذا **شميط بن عجلان**: في نداءات خالصة ينادي.. أيها المغتر بطول صحتك! أما رأيت ميتاً قط من غير سقم؟ أيها

---

(١) صفة الصفوة: ٣/٢٣٤.

(٢) الإحياء: ٤/٤٥١.

(٣) صيد الخاطر: ٢٦.

المغتـــر بطول المهلة! أمـا رأيت مأخـوذاً قط من غير عدة؟ أبـالصحة تغترون؟! أم بطول العافية تمرحون؟! أم بالموت تمنئون؟ أم على ملك تجرئون؟

إن المـوت إذا جاء لم يمنعـه منـك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك.. أما علمت أن ساعة الموت: ذات كرب شديد، وندامة على التفريط؟ رحم الله عبداً عمل لساعة الموت، رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت.. رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الموت[1].

أخـــي.. **إن من علامات السعادة والفلاح** أن العبد كلما زيد في عمله، زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله، زيد في خوفـه وحذره، وكلما زيد في عمره، نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس، وقضاء حوائجهم، والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه، زيد في كبره وتيهه. وكلما زيد في عمله، زيد في فخره، واحتقاره للناس، وحسن

(١) صفة الصفوة: ٣/٣٤٧.

ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في بخله وحرصه، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في كبره وتيهه.

وهـذه الأمور: ابتلاء من الله، وامتحان يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام، ويشقى بها أقوام[1].

فأنـظر أين أنت؟ وإين موضـع قدمك؟.. واسمع وصية الإمـام مالـك وهو يوصي رجلاً.. قال: إذا هممت بأمر في طاعـة الله، فلا تحبسه إن استطعت فواقا حتى تمضيه، فإنـك لا تأمن الأحداث، فإذا هممت بغير ذلك، فإن استطعت أن لا تمضه فافعل، لعل الله يحدث لك تركه، ولا تستحي إذا دعيت لأمر ليس بحق؛ أن تقول: قال الله ـ تعالى ـ في كتابه: ﴿**والله لا يستحي من الحق**﴾. وطهر ثيابك، وأنقها عن معاصي الله؛ وعليك بمعـالي الأمـور وكـرائمها، واتق رذائلها وما سفسف منها، فإن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها، وأكثر تلاوة القرآن، واجتهد أن تأتي عليك ساعة من ليل أو نهار، إلا ولسـانـك رطبـاً من ذكـر الله، ولا تمكن الناس من نفسك،

---

(١) الفوائد: ٢٠١.

واذهب حيث شئت[١].

وقد قال **عمر بن عبدالعزيز** في خطبته: إن لكل سفر زاداً لا محالـة، فتـزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه، ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمـد، فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري، لعله لا يُصبح بعد مسائه، ولا يُمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيـت.. ورأيتم من كان بالـدنيـا مغتراً، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامـة، فأمـا من لا يداوي كلماً إلا أصابة جرح من ناحية أخرى.. فكيف يفرح[٢].

نمـوت ونـبـلى غيـر أن ذنـوبـنـا
إذا نحـن متـنـا لا تمـوت ولا تبلى
ألا ربّ عيـنـيـن لا تنـفـعـانـه
ومـا تنـفـع الـعينـان من قلبـه أعمى

---

(١) ترتيب المدارك: ١/١٨٧.

(٢) الاحياء: ٤/٤٨٣.

أخـي التائـب:

إحذر نفسك، فما أصابك بلاءٌ قط إلا منها، ولاتهادنها، فو الله، ما أكرمها من لم يُهنها، ولا أعزها من لم يُذلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يُتعبها، ولا أمِنَها من لم يخوّفها، ولا فرحها من لم يُحزنها[١].

قال **أبـوبكـر بن عيـاش**: قال لي رجلٌ مرة، وأنا شاب: خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رقّ الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوكٍ أبداً[٢].

أخي التائب: وأنت تسير في ركاب التائبين.. تحط رحالك ـ إن شاء الله ـ في جنات عدن.. لا تلتفت إلى نزعات الهوى، ولا تترد مع وساوس الشيطان، وعليك بلزوم الجادة، تنجو وتسلم.

قال **الحسن**: ابن آدم! إنك ناظر غداً إلى عملك، يوزن خيره وشره، فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه، فإنك إذا رأيته غداً في ميزانك سرك مكانه[٣].

---

(١) الفوائد: ٩٠.

(٢) صفة الصفوة: ٣/١٦٤.

(٣) البداية والنهاية: ٩/٣٠٧.

وجهـاد النفس ـ ياأخي ـ جهـادٌ طويل . . وطريق محفوف بالمكاره . . مذاقه مر وملمسه خشن . . ولكن لا تكن من الذيـن وصفهم **يحيى بن معاذ** بقوله: مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار[١].

يا مدمـن الـذنـب أمـا تسـتـحـي
والله فـي الـخـلـوة ثانـيـكـا
غـرّك مـن ربـك إمـهـالـه
وسـتـره طـول مسـاويـكـا[٢]

قال **حاتم الأصم**: من خلا قلبه من ذكر **أربعة أخطار** فهو مغتر لا يأمن الشقاء:

الأول: خطر يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان؟!

الثاني: حين خُلق في ظلمات ثلاث، فنادى الملك: بالشقاوة والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء؟!.

الثالث: ذكر هول المطالع، فلا يدري أيُبشر برضا الله أم بسخطه؟!.

---

(١) السير: ١٣/ ١٥.
(٢) جامع العلوم والحكم: ١٩٦.

الرابع: يوم يصدر الناس أشتاتاً، فلا يدري أي الطريقين يُسلك به[1]؟!.

أخـي الحبيـب:

لا تحـسـبـن سروراً دائـمـاً أبـداً
من سره زمـنٌ ساءتـه أزمـانُ
لا تغـتـر بشـبـاب آنـفٍ خضـلٍ
فكـم تقـدم قبـل الـشـيب شبـانُ
ويـا أخـا الشيب لو ناصحت نفسـك
لم يكـن لمـثـلك في الـلذات إمـعـانُ

كان **الحسن بن يسـار** كثيراً مايقـول: يا ابن آدم! نطفـة بالأمس وجيفةٌ غداً، والبلى فيما بين ذلك، يمسح جبينك كأن الأمر يعني به غيرك، إن الصحيح من لم تمرضه الذنوب، وإن الـطاهـر من لم تنجسـه الخـطايا، وإن أكثركم ذكراً للآخرة أنساكم للدنيا، وإن أنسى الناس للآخرة أكثركم ذكراً للدنيا. وأن أهـل العبادة من أمسك نفسه عن الشر، وأن البصير من أبصر الحرام، فلم يقربه، وأن العاقل من يذكر يوم القيامة ولم

(١) جامع العلوم والحكم: ٧١.

ينس الحساب[١].

أخي.. علم أربـاب القلوب: أن الـدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمـان: كالبـذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار، ومساقي الماء إليها، وأن القلب المستغرق بالدنيا: كالأرض السبخة، التي لا ينمـو فيهـا البذر، ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحدٌ إلا مازرع، ولا ينمو زرعٌ إلا من بذر الإيمان[٢].

وانظر إلى: تقسيم الهمم، ومقدار العزائم.. قال **محمد بن السماك**: همة العاقل في: النجاة، والهرب. وهمة الأحمق في: اللهو، والطرب[٣].

وأعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد، وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حد.

فكلما أصبح وأمسى معافى.. زاد الاغترار، وطال الأمل.

وأي موعـظة أبلغ من أن ترى: ديار الأقـران، وأحـوال

---

(١) الزهد للبيهقي: ٩٤.

(٢) منهاج القاصدين: ٢.

(٣) حلية الأولياء: ٨/٢٠٤.

الإخوان، وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى..

حاشا من له عقل أن يسلك هذا المسلك.

بلى والله إن العاقل ليبادر السلامة، فيدخر من زمنها للزمن، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة.

خصوصاً لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل لها، وأن التدارك بعد الفوت لا يمكن.

وقدِّر أن العاصي عُفي عنه، أينال مراتب العمال؟

ومن أجال على خاطره ذكر الجنة، التي لا موت فيها، ولا مرض، ولا نوم، ولا غم، بل لذَّاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجد ههنا إنتهب هذا الزمان، فلم ينم إلا ضرورة، ولم يغفل عن عمارة لحظة.

ومن رأى أن ذنباً قد مضت لذته، وبقيت آفاته دائمة؛ كفاه ذلك زاجراً عن مثله[1].

ملاك الأمـــر تقـــوى الله فأجـــعـــل
تُقـــاه عدة لصـــلاح أمـــرك

---

(١) صيد الخاطر: ٤٢٧.

وبـادر نحـو طاعـتـه بعـزمٍ
فمـا تدري متـى يُمـضي بِعُمـرك[١]

عن **الحسن** قال: يا ابن آدم! إذا رأيت النـاس في خير فنـافسهم فيه، وإذا رأيتهم في هلكـة فذرهم ومـا اختـاروا لأنفسهم، قد رأينا أقواماً آثروا عاجلتهم على عاقبتهم، فذلوا وهكلوا[٢].

أخـي التائـب: نادى منادي الإيمان ﴿**يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم**﴾. [الأحقاف: ٣١].

أَسْمَـعَ والله لو صادف آذاناً واعية، وتبصر لو صادف قلوباً من الفسـاد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء؛ فأطفـأت مصـابيحهـا، وتمكنت في آراء الـرجـال، فأغلقت وأضاعت مفاتيحها، ران عليها كسبها، فلم تجد حقائق القـرآن إليهـا منفذاً، وتحكمت فيها أسقام الجهل، فلم تنتفع معها بصالح العمل[٣].

---

(١) جنة الرضا: ١/١٤١.

(٢) حلية الأولياء: ٢/١٥٧.

(٣) مدارج السالكين: ١/٧.

* كتب **الحسن** إلى فرقد. . أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والعمل بما علمك الله، والاستعداد لما وعد الله، مما لا حيلة لأحد في دفعه، ولا ينفع الندم عند نزوله، فأحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الجاهلين، وشمر الساق، فإن الدنيا ميدان مسابقة، الغاية: الجنة أو النار، فإن لي ولك من الله مقاماً، يسألني وإياك عنه: وساوس الصدر، ولحظ العيون، وإصغاء الأسماع، وما أعجز عنه[1].

اليوم تفعل ما تشاء وتشتهي
وغداً تموت وترفع الأقلام

أخي التائب:

إن أصول المعاصي كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة:

تعلق القلب بغير الله.

وطاعة القوة الغضبية.

والقوة الشهوانية.

وهي: الشرك، والظلم، والفواحش.

فغاية التعلق بغير الله: شرك، وأن يُدعى معه إله آخر، وغاية

---

(١) البداية والنهاية: ٩/٣٠٢.

طاعة القوة الغضبية: القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية: الزنىٰ.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿**والذين لا يدعـون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون**﴾[١].

قال **ابن عباس**: يا صاحب الذنب! لا تأمن فتنة الذنب، وسوء عاقبـة الذنب، ولتتبعك الذنب أعظم من الذنب إذا عملته.

أخي الحبيب.. أين نـحن من هؤلاء..؟

قال بندار يتحدث عن يحيى القطان: اختلفت إليه عشرين سنة، فما أظن أنه عصى الله قط[٢].

وقال **عون بن عبدالله** يحذرنا من طول الأمل: ما أحد ينزل الموت حق منزلته، إلا عد غداً ليس من أجله، كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وراج غداً لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره[٣].

---

(١) الفوائد: ١٠٦.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/٢٩٩.

(٣) حلية الأولياء: ٤/٢٤٣.

أخي المـذنب ـ وكلنـا كذلـك ـ . . هيا نسـارع إلى جنة عرضهـا السموات والأرض، فيها: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. . ﴿**من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لو لا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين**﴾. [المنافقون: ١٠].

هَبـكَ عُمِّـرت مثـل ما عاش نوح
ثم لاقيـت كل ذلـك يسـارا
هل من الـمـوت لا أبـالـك بدّ
أيّ حي إلـى سوى الـمـوت صارا[١]

إن الحزن على الدنيا طويل، والموت في الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في الجسم دبيب، فبادر قبل أن تُنادى بالرحيل[٢].

قال العلمـاء: تذكـر المـوت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون مصائب فيها[٣].

---

(١) السير: ١٠/٢٣٣.
(٢) الإحياء: ٤/٤٨٣.
(٣) التذكرة: ١٣.

قل للمفرط يستعد
ما من ورود الموت بُد[١]

قال **ابن الجوزي**: تأملت وقوع المعاصي من العصاة، فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم، فوقع العصيان تبعاً.

فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة؛ فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر. ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته، ما أنبسطت كف بمخالفته[٢].

يا أيها المذنب المحصي جرائمه
لا تنس ذنبك وأذكر منه ماسلفا
وتب إلى الله قبل الموت وانزجر عنه
يا عاصياً واعترف إن كنت معترفا[٣]

قال رجل **لداود الطائي**: أوصني، قال: اتق الله، وبر والديك، ويحك.. صم الدنيا، واجعل فطرك الموت، واجتنب الناس[٤].

---

(١) التبصرة: ١/ ٧٠.
(٢) صيد الخاطر: ٢٨٥.
(٣) مكاشفة القلوب: ٩١.
(٤) السير: ٧/ ٤٢٤.

وكان **زياد بن جرير** يقول: تجهزتم؟ فسمعه رجل يقول: ما يعني له بقوله تجهزتم؟ فيقول: تجهزتم للقاء الله تعالى[١].

ألا أيـــهـــا الـــمـغـــرور مالـــك تلعـب
تؤمـــل آمـــالاً ومـــوتـــك أقـــرب

* قال **أويس القـرني** ـ رضي الله عنـه ـ لبعض اخـوانه: يا أخي: إذا نمت، فاذكر الموت، واجعله أمامك. وإذا قمت، فلا تنظر لصغر ذنبك، ولكن انظر إلى من عصيت.

أخـي الحبيـب:

الهمة العالية: من استعد صاحبها للقاء الرب ـ جل وعلا ـ..

سلك الـطريق وأظمـأ الهواجر.. وقام من الليل.. فإنها لحظات قادمة وآجال محدودة.. وانظر يمنةً ويسرةً، لترى أين ذهب ذلك الفتى؟ وماذا أصابه؟.. ومن فاجأه؟!

بينـمـا الـفتى مرح الخـطا فرح بمـا
يسـعى له إذ قيـل: قد مرض الـفـتى

---

(١) حلية الأولياء: ٤/١٩٧.

إذ قيـل: بات ليـلة ما نامـهـا
إذ قيـل: أصبـح مثـخنـاً ما يُرتجى
إذ قيـل: أصبـح شاخصـاً ومـوجهـاً
ومـعـللاً إذ قيـل: أصبـح قد قضى[١]

عن **الحسن** قال: ابن آدم.. السكين تُحـدّ، والكبش يُعلف.. والتنور يُسَجرُ[٢].

فينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل. وإن كان حلمه يسع الذنوب، إلا أنه إذا شاء عفا، فعفا كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ وأخذ باليسير.. فالحذر الحذر[٣].

وكان **الحسن** يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس..

إبن آدم! إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك[٤].

---

(١) التذكرة: ٢٢.
(٢) السير: ٤/٥٨٦.
(٣) صيد الخاطر: ١٨٥.
(٤) حلية الأولياء: ٢/١٥٥.

وقـال **عبدالله بن سميط**: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول صحته! . أما رأيت ميتاً قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة! أما رأيت مأخوذاً قط من غير عدّة[١]؟

ومـا هي إلا ليـلة بعـد ليـلةٍ
ويـوم إلـى يوم وشـهـرٌ إلـى شهـر
مطايـا يقـرِّبـن الـجـديـد إلى البلى
ويُـدنين أشـلاء الصّحيح إلى القبـر[٢]

وحين سُئل رجل **عبدالعزيز بن أبي رواد**: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت والله في غفلة عظيمة عن الموت، مع ذنوب كثيرة قد أحـاطت بي . . راحل يسرع كل يوم في عمري . . ومؤمل لست أدري على ما أهجم . . ثم بكى[٣].

أخـي الحبيـب:

ترجـو الـبـقـاء بدارٍ لا ثبـات لهـا
فهـل سمـعـت بظلٍ غيـر منتـقـل[٤]

فالواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي، فإن نارها

---

(١) الأحياء: ٤/٤٨٣.
(٢) عقود اللؤلؤ والمرجان: ٢١٦.
(٣) حلية الأولياء: ٨/١٩٤.
(٤) طبقات الشافعية: ٢/٢٣٩.

تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفيء تلك النار إلا ما كان من عين العين[١].

قال **إبراهيم التيمي**: مثلت نفسي في النار: أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها وأشرب من زمهريرها، فقلت: يا نفس! أي شيء تشتهين؟! قالت: أرجع إلى الدنيا، أعمل صالحاً، عملاً أنجو به من النار. من هذا العذاب، ومثلت نفسي في الجنة: مع حورها، وألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها، فقلت: يا نفس! أي شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملاً أزداد من الثواب؟ فقلت: أنت في الدنيا وفي الأمنية[٢].

مثل لنفسك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور
إذا كورت شمس النهار وأدنيت
حتى على رأس العباد تسير

---

(١) صيد الخاطر: ٢٦٧.
(٢) حلية الأولياء: ٤/٢١١.

وإذا النجوم تساقطت وتناثرت
وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها
ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها
فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا الوحوش لدى القيامة أحشرت
وتقول للأملاك أين نسير[١]

ونحن في غفلةٍ . . تعجب منها **مالك بن دينار** بقوله: عجباً لمن يعلم: أن الموت مصيره، والقبر مورده . . كيف تقر بالدنيا عينه؟ وكيف يطيب فيها عيشه[٢]؟.

ولما حضر الموت **الحسن**، دخل عليه رجال من أصحابه، فقالوا له: يا أبا سعيد! زودنا منك كلمات تنفعنا؟ قال: إني مزودكم: ثلاث كلمات، ثم قوموا عني، ودعوني لما توجهت له، مانُهيتم من أمر فكونوا من أترك الناس له. وما أُمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم:

(١) التذكرة: ٢٤٤.
(٢) صفة الصفوة: ٣/٢٧٧.

خطوتان: خطوة لكم، وخطوة عليكم، فانظروا، أين تغدون؟ وأين تروحون[١]؟.

* خطب **عمر بن عبدالعزيز** فقال: أما بعد: فإن كنتم مؤمنين بالآخرة، فأنتم حمقى. وإن كنتم مكذبين بها، فأنتم هلكى[٢].

إن من نازعته نفسه إلى لذة محرمة، فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها، وسمع نداء العقل يناديه: ويحك لا تفعل.. فإنك تقف عن الصعود، وتأخذ في الهبوط، ويقال لك: ابعد بما اخترت، فإن شغله هواه فلم يلتفت إلى ماقيل له، لم يزل في نزول[٣].

قيل **للشافعي** ـ رحمه الله ـ مالك تكثر من إمساك العصا، ولست بضعيف؟ قال: لأذكر أني مسافر[٤].

وكان **عطاء السلمي** يقول: رب ارحم في: الدنيا غربتي،

---

(١) حلية الأولياء: ٢/١٥٤.
(٢) حلية الأولياء: ٥/٢٩٠.
(٣) صيد الخاطر: ٢٥٦.
(٤) السير: ١٠/٩٧.

وفي القبر وحدتي ، وطول مقامي غداً بين يديك[١] .

أخـي التائـب:

إذا كثـرت منـك الـذنـوب فداوهـا
برفـع يدٍ في الـلـيـل والـلـيـل مُظلم
ولا تقـنـطن من رحـمـة الله إنـمـا
قُنـوطـك منهـا في خطايـاك أعـظم
فرحـمـتـه للمـحـسـنيـن كرامـةٌ
ورحـمـتـه للمـسـرفـيـن تكـرم[٢]

(١) حلية الأولياء: ٦/٢٢٤ .
(٢) التبصرة: ١/٢٠٠ .

اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها، مثمرة للألم بعد انقضائها، فاذا اشتدت الداعية منك إليها، ففكر في انقطاعها، وبقاء قُبحها وألمها، ثم وازن بين الأمرين، وانظر مابينهما من التفاوت[١].

قال **عبدالله بن عباس**: إن للحسنة: ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة: سواداً في الوجه، وظلمة في القبر، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق[٢].

ومن آثار الذنوب والمعاصي ماقاله **أبو الدرداء**: ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدرون مم هذا؟ إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله بغضه في

---

(١) الفوائد: ٢٤٨.

(٢) الجواب الكافي: ٩٩.

قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر[١].

والتعب ـ أخي الحبيب: ـ بالطاعة ممزوج بالحسن، مثمر للذة والراحة، فإذا ثقلت على النفس، ففكر في انقطاع تعبها، وبقاء حسنها ولذتها وسرورها، ووازن بين الأمرين، وآثر الراجح على المرجوح، فإن تألمت بالسبب، فانظر إلى مافي المسبّب من الفرحة والسرور واللذة يَهُن عليك مقاساته، وإن تألمت بترك اللذة المحرمة؛ فأنظر إلى الألم الذي يعقبه، ووازن بين الألمين[٢].

وتفكر أخي الكريم في نتائج الذنب.. وما يسببه في قلبك وانظر إلى نور الحسنة، واتبعها أختها.

قال **أبو الحسن المزين**: الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة[٣].

فإن الذنوب والمعاصي تضر ولاشك وضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر،

---

(١) الجواب الكافي: ٩٦.

(٢) الفوائد: ٢٤٨.

(٣) صفة الصفوة: ٢/٢٢٦.

وهل في الدنيا والآخرة شرور إلا سببه الذنوب والمعاصي.

* هـذا **ابن عبـاس** يحذرنـا من الذنوب والمعاصي، فيقـول: لا تأمنّن من سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

قال **هشام بن حسان**: كنت أمشي خلف العلاء بن زياد، فكنت أتوقى الطين، قال فدفعه إنسان فوقعت رجله في الطين فخـاضه، فلما وصل إلى الباب وقف فقال: رأيت ياهشام؟ قلت: نعم، قال: كذلك المرء المسلم يتوقى الذنوب، فإذا وقع فيها خاضها[٢].

والعبـد لا يريد **بمعصيتـه مخالفة سيده**، ولا الجرأة على محـارمـه، ولكن: غلبات الطبع، وتزيين النفس والشيطان، وقهر الهوى، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة، هذا من جانب العبد، وأما من جانب الربوبية: فجريان الحكم، وإظهار عزِّ الربوبية، وذلِّ العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٤٣٠.

(٢) حلية الأولياء: ٢/٢٤٤.

الحسنى : كالعفـو والغفـور والتواب والحليم، لمن جاء تائباً نادماً، والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد لمن أصر ولزم المجرة.

فهو سبحانه يريد أن يُري عبده تفرده بالكمال، ونقص العبد وحاجته إليه، ويشهده كمال قدرته وعزته، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وأن رحمته به إحسان إليه لا معارضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة.

فلله كم في تقـدير الذنب من حكمه وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة[1].

قال **سليمان التيمي** : إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته

أخـي التائـب:

وإن امـرءاً لم يصـف لله قلبـه
لفـي وحـشـة من كل نظرة ناظـر
وإن امـرءاً لم يرتـحـل ببـضـاعـة
إلـى داره الأخـرى فليس بتـاجـر

(١) الفوائد: ٨٨.

وإن أمـــرءاً ابـــتـــاع دنـــيـــا بديـنـــه
لمـــنـــقـلب منـهـــا بصـفـقـــة خاســـر

والتوبة من الذنب: كشرب الدواء للعليل، ورب علة كانت سبب الصحة[١].

اعلموا أخواني! أن للذنوب تأثيرات قبيحة، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافاً مضاعفة. والمجازي بالمرصاد لا يسبقه شيء ولا يفوته.

والذنوب كما قيل: جراحات، ورب جرح وقع في مقتل[٢].

فرب جرح قتل، ورب عثرة أهلكت.. ورب فارط لا يستدرك.

* كان الحســن يقـول إذا قـرأ: ﴿**كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها**﴾.

يقول: ابن آدم ما كان في غدوة أو روحة ما تصبر على المعصية[٣].

إذا أنت طاوعت الهـــوى قادك الهـــوى
إلـــى بعض مافـــيـــه عليـــك مقـــال

---

(١) الفوائد: ٨٨.
(٢) الفوائد: ٥٤.
(٣) الحسن البصري: ١٤٩.
(٤) شذرات الذهب: ١/١٦٥.

نُصح المذنب

سأل رجل **ابن مسعود** عن ذنب ألم به.. هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه، فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب: كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس[١].

أخي الكريم: كلنا أصحاب ذنوب وخطايا، ولكن خيرنا من يسارع إلى التوبة.. تحثه الخطى، وتسرع به الدمعة.. ويعينه أهل الخير.. رفقاء الدنيا والآخرة..

عن أبي قلابة أن **أبا الدرداء** مر على رجل قد أصاب ذنباً، فكانوا يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، وأحْمدوا الله ـ عزّ وجل ـ الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي[٢].

---

(١) الإحياء: ٤/١٦.

(٢) صفة الصفوة: ١/٦٤٠، حلية الأولياء: ١/٢٢٥.

وكان رجل على حالٍ حسنة، فأحدث حدثاً أو أذنب ذنباً، فرفضه أصحابه، ونبذوه، فبلغ **إبراهيم النخعي**، فقال: تداركوه وأعطوه ولا تدعوه[١].

من واجب المحبة والنصحية عدم ترك العاصي يستمر في معصيته، بل يحاط بإخوانه، ويذُكر، ولا يهمل، فيظل.. ويطرق أبواباً أخرى.. وهنا يكمن الأخ المخلص والصديق الوفي.. يحوطه قبل أن تزل قدمه وتهوى.

قال **رجاء بن حيوة** لرجلين وهو يعظهما: انظرا الأمر الذي تحبان أن تلقيا الله ـ عزّ وجل ـ فخذا فيه الساعة، وانظرا الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله ـ عزّ وجل ـ عليه فدعاه الساعة[٢].

فلله در قوم بادروا الأوقات، واستدركوا الهفوات، فالعين مشغولة بالدمع عن المحرمات، واللسان محبوس في سجن الصمت عن الهلكات، والكف قد كفت بالخوف عن الشهوات، والقدم قد قيدت بقيد المحاسبات، والليل لديهم يجأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة

---

(١) صفة الصفوة: ٣/٨٩.

(٢) صفة الصفوة: ٤/٢١٤.

اللذات، فكم من شهـوة مابلغـوهـا حتى الممـات، فتيقظ للحافهم من هذه الرقدات، ولا تطمعن في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تؤملن النجاة وأنت مقيم على الموبقات.

شمـر عسـى أن ينـفـع الـتـشـمـيـر
وانـظر بفـكـرك ما إلـيـه تصـيـر
طولَّـت آمـالاً تكـنـفـهـا الـهـوى
ونـسـيـت أن الـعـمـر منـك قصـيـر
قد أفـصـحـت دنـيـاك عن غدراتـهـا
وأتـى مشـيـبـك والـمـشـيـب نذيـر
دار لهـوت بهـا زهـواً متمتعـاً
ترجـو الـمـقـام بهـا وأنـت تسـيـر[1]

أخـي الحبيـب: اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير. ذلك يوم التغابن - يوم يعض الظالم على يديه -.

---

(١) التبصرة: ١/ ١٢٠.

ويا أخـي:

إذا أنـت لـم ترحـل بزاد من التُقـى
وأبصـرت يوم الحشـر من قد تزودا
ندمـت على أن لا تكـون كمـثـله
وأنـك لم ترصـد كمـا كان أرصـدا[1]

(١) الفوائد: ٦٤.

نماذج من المحافظة على الأعمار

الأعمـار تُطوى والمـراحـل تُقضى . . وهي أيام تمـر مر السحاب . . إذا فات يوم لم نستطع تداركه ، وإذا زال نهار أقبل ليل جديد . .

كـان **يزيـد الـرقاشـي** يقـول لنفسه : ويحك يا يزيـد ! ! مـن ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟ ثم يقول : أيها الناس ألا تبكـون وتنـوحـون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من المـوت طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر ، كيف يكون حاله[1]؟ !

وهذا **ميمون بن مهران** ، يرفع صوته بنداءات حارة ، فيقول لجلسائه : يامعشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض؟ قالوا : الحصاد ، فنظر إلى الشباب ، فقال : يامعشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد .

(١) التذكرة للقرطبي : ١٠ .

أخي الحبيب.. البدار البدار:

ومـا مضـى الـشـبـاب بمـسـتـرد
ولا يـوم يَمـرُ بمـسـتـعـاد

ويا أخـي:

دع عنـك ما قد فات في زمـن الصبـا
واذكـر ذنـوبـك وابكـهـا يا مذنـب
وأخش منـاقـشـة الـحـسـاب فإنـه
لابـد محص ما جنـيـت ويـكـتـب
لم ينـسـه الـملكـان حيـن نسيـتـه
بل أثـبـتـاه وأنـت لاهٍ تلعـب[1]

أخـي:

إنمـا فضلُ العقل بتأمل العواقب، فأما قليل العقل؛ فإنه يرى الحال الحاضرة، ولا ينظر إلى عاقبتها. . فإن اللص يرى أخـذ المـال، وينسى قطع اليد، والبـطال يرى لذة الراحة، وينسى ما تجني من فوات العلم وكسب المال، فإذا كبر فسئل عن علم لم يدر، وإذا احتاج سأل فذل، فقد أربى ما حصل

(١) ديوان الإمام الشافعي: ٤٧.

من التـأسف على لذة البـطالـة. ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيا.

قس على هذه وانتبـه للعـواقب، ولا تؤثر لذة تفوت خيراً كثيراً، وصابر المشقة تحصل ربحاً وافراً[١].

قال **عبدالعزيز بن أبي رواد** لرجل: من لم يتعظ بثلاث لم يتعظ بشيء.. الإسلام والقرآن والمشيب[٢].

ألـم تك منـهـاة عن الـزهـو أنـني
بَدَا لي شيـب الـرأس والضعف والألم
ألـمَّ بي الـخـطب الـذي لو بكـيتـه
حيـاتي حتى ينَفَـذ الـدمـع لم أُلَمْ[٣]

قال أبـو عبـدالله القـرشي: سيروا إلى الله تعـالى عرجـاً ومكاسير فإن انتظار الصحة بطالة[٤].

وقـال بعضهم: أكثـر من يمـوت الشبـاب، وآية ذلك أن الشيوخ في النـاس قليل.. فكن ـ أخي ـ على حذر من أن يفجأك من لم تستعد له.. فتمسي في قبرك بدون زاد.. فإن:

---

(١) صيد الخاطر: ٦١٣.
(٢) صفة الصفوة: ٢/٢٢٩.
(٣) السير: ٢٢/٩.
(٤) وفيات الأعيان: ٤/٣٠٦.

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر
ولابد من زادٍ لكل مسافر
ولابد للإنسان من حمل عدة
ولا سيما إن خاف سطوة قاهر[١]

قف يا أخي! حاسب نفسك، وكن مثل **محمد بن الفضل** عندما قال: ماخطوت منذ أربعين سنة خطوة لغير الله ـ عزّ وجل ـ[٢].

وهذا خارجة بن مصعب يقول: صحبت **عبدالله بن عوف** أربعاً وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة[٣].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟

تمر أيامنا، وتنقص أعمارنا، ونحن لا نزال في غفلاتنا.. نسوف في التوبة.. ونلمح سراب الأمل.. وقد قال **أبو سليمان الداراني**: من كان يومه مثل أمس فهو في نقصان.

---

(١) التبصرة: ١/٣٥.
(٢) جامع العلوم والحكم: ٩٣٠.
(٣) حلية الأولياء: ٣/٣٧.

وكيف لا يكون في نقصان، وهو يقترب نحو منيته.. ويسير إلى نهايته.. وهو في تقصير متتابع، ولهوٍ، ووقت ضائع.

وحين عوتب **عطاء السليمي** في الرفق بنفسه قال: أتأمرونني بالتقصير، والموت في عنقي، والقبر بيتي، وجهنم أمامي.. ولا أدري ما يصنع بي ربي - عزّ وجل -[٢].

المرء تأكله الليالي
كأكل الأرض ساقطة الحديد[٢]

قال **سعيد بن جبير**: إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة، فذكر الفرائض والصلوات وما يرزقه الله من ذكره[٣].

وقال **ميمون بن مهران**: لا خير في الدنيا إلا لرجلين، رجلٌ تائب، ورجل يعمل في الدرجات[٤].

* **قال ابن الجوزي:**

تذكرت في سبب دخول جنهم، فإذا هو المعاصي..

---

(١) الزهد للبيهقي، ٢٢٨.
(٢) وفيات الأعيان: ٦/١٠٣.
(٣) السير: ٤/٣٢٦.
(٤) حلية الأولياء: ٤/٨٣.

فنظرت في المعاصي، فإذا هي حاصلة في طلب اللذات، فنظرت في اللذات، فرأيتها خدعًا ليست بشيء، وفي ضمنها من الأكدار ما يصيِّرها نغصاً فتخرج عن كونها لذات.

فكيف يتبع العاقل نفسه، ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار؟

وهي ليست بكثير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا[١]؟.

ولا خيـر في الـدنيـا لمن لم يكن له
من الله في دار الـمـقـام نصـيـبُ
فإن تعـجـب الـدنـيـا رجـالاً فإنـه
متـاعٌ قليـل والـزوال قريـب

قال **ريـاح القيس**: لي نيف وأربعون ذنباً، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة[٢].

كثرت ذنوبنا فلم نحصها.. وقلت ذنوبهم فعرفوها..

قال **أبـو إسحاق القرشي**: كتب إليّ أخي من مكة.. يا أخي! إن كنت تصدقت بما مضى من عمرك على الدنيا، وهو

---

(١) صيد الخاطر: ٥٥٣.

(٢) صفة الصفوة: ٣/٣٦٨.

الأكثر، فتصدق بما بقي من عمرك على الآخرة، وهو الأقل[١].

وفي حديث لتحريك الهمم وشحذ النفوس، قال **السرى**: يا معشـر الشبـاب! جدوا قبـل أن تبلغوا مبلغي، فتضعفوا، وتقصروا كما قصرت.. وكان ـ رحمه الله ـ في ذلك الوقت لا تلحقه الشباب إلى العبادة.

وكان **العلاء بن زياد** يقول: ينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه ـ عزّ وجل ـ فأقاله.. فليعمل بطاعة الله ـ عزّ وجل ـ.

ونحن ـ يا أخي ـ أقالنا الله ـ عزّ وجل ـ وأمد في أعمارنا.. وفتح لنا باب التوبة.. والإنابة والأوبة.. فماذا بقي..؟ إنها محاسبة النفس، والجد في الطاعة، والإسراع في التوبة.

تصـل الـذنـوب إلى الـذنـوب وتـرتجي
درج الجنـان وطيـب عيش العـابـد
ونـسـيـت أن الله أخـرج آدمـاً
منهـا إلى الـدنـيـا بذنـب واحـد[٢]

---

(١) الزهد للبيهقي: ١٧٥.

(٢) البداية والنهاية: ٩/٢٩١.

* رأيت من نفسي عجباً . . تسأل الله ـ عزّ وجل ـ حاجاتها، وتنسى جناياتها . . نحرص على جمع الدنيا وحطامها وهي سنوات محدودة . . ولهونا عن الآخرة وهي الحياة الأبدية . قال رجل **لأبي حازم**: أوصني؟ قال: كل مالو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فألزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه[١] .

وقال **الحسن** وهو يحكي حالنا: إن المؤمن لا يصبح إلا خائفاً . . ولا يصلح إلا ذاك، لأنه بين ذنبين . . ذنب مضى لا يدري كيف يصنع الله فيه، وأجل أو قال آخر . . لا يدري ما كتب عليه فيه .

وقال ـ رحمه الله ـ: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث:

أنه لم يتمتع بما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه[٢] .

قال ابن الجوزي:

رأيت الخلق كلهم في صف محاربة، والشياطين يرمونهم بنبل

---

(١) الإحياء: ٤/٢٨ . (٢) حلية الأولياء: ٦/٢٧٢ .

الهوى، ويضربونهم بأسياف اللذة.

فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء..

وأما المتقون ففي جهد جهيد من المجاهدة، فلابد مع طول الوقوف في المحاربة من جراح، منهم يجرحون ويداوون، إلا أنهم من القتل محفوظون، بلى! إن الجراحة في الوجه شين باق، فليحذر ذلك المجاهدون[١].

مضى أمسك الأدنى شهيداً معدّلا
ويومك هذا بالفعال شهيد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءة
فثنّ بإحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك إلى غدٍ
لعل غداً يأتي وأنت فقيد[٢]

أخي الحبيب: قس نفسك، وأنظر ماذا يهمك في هذه الدنيا.. آمالك وطموحاتك ماهي.؟ أهي حطام الدنيا أم جنة عرضها السموات والأرض؟! وأنظر ما يهمك من أمرٍ، أهو للآخرة أم للدنيا؟. فقد قال الجنيد بن محمد: علامة إعراض

(١) صيد الخاطر: ٢٥٧. (٢) مكاشفة القلوب: ١٣٢.

الله عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه[١].

فلا تُشغلك الدنيا بزينتها وزخرفها فإننا:

نســير إلى الآجــال في كل لحظة
وأيــامــنــا تطوى وهــن مراحــلُ
ولم أر مثــل المــوت حقًّــا كأنــه
إذا ما تخطتــه الأمــاني باطــل
ومــا أقبــح التفــريط في زمن الصبــا
فكــيــف والــشــيــب للرأس شاغــل
فارحــل من الــدنيــا بزادٍ من الــتــقى
فعــمــرك أيــام وهــن قلائــل

الإنسـان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه، والتزم أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته، وآثره على هواه. وشرُّ المخلوقات إذا تباعد عنه، ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته، فمتى اختار التقرب إليه، وآثره على نفسه وهواه، فقد حكم قلبه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وحكم رشده على غيه، وهُداه على هواه، ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه

(١) صفة الصفوة: ٢/٤١٨.

على عقله وقلبه ورشده[١].

عن **مسرور بن الأجدع** قال: إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها، يتذكر ذنوبه يستغفر منها[٢].

وقد كان **بن أبي ذئب** الإمام يجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً ما كان فيه مزيد اجتهاد[٣].

أيأسوني لما رأوا من ذنوبي
أتراهم هم الغفور الرحيم
اتركوني وان تعاظم ذنبي
إنما يغفر العظيمَ العظيمُ[٤]

* تأملت في الخلق وإذا هم في حالة عجيبة، ويكاد يقطع منها بفساد العقل، وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ، وتذكر له الآخرة، فيعلم صدق القائل، فيبكي، وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثم يتراخى عمله بمقتضى ماعزم عليه.

---

(١) الفوائد: ٢٢٥.
(٢) صفة الصفوة: ٣/٢٦.
(٣) تذكرة الحفاظ: ١/١٩١.
(٤) جنة الرضا: ١/١٣٥.

فإذا قيل له: أتشك فيما وعُدت به؟ قال: لا والله، فيقال له: فاعمل، فينوي ذلك، ثم يتوقف عن العمل، وربما مال إلى لذة محرمة، وهو يعلم النهي عنها[١].

قال **أبو الدرداء**: تمام التقوى، أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة[٢].

أخي التائب: الحذر الحذر من المعاصي.. فإن عواقبها سيئة، وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبداً مع تعثير أقدامه، وشدة فقره، وحسراته على مايفوته من الدنيا، وحسرة لمنْ نالها.

فالله الله في تجويد التوبة عساها تكف كف الجزاء.. والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه، وأصلح مابينك وبينه في السر، وقد أصلح لك أحوال العلانية.

ولا تغتر بستره، فربما يجذب عن عورتك، ولا بحلمه فربما بغت العقاب. وعليك بالقلق واللجأ إليه والتضرّع[٣].

---

(١) صيد الخاطر: ٤٦١.
(٢) جامع العلوم: ١٩٢.
(٣) صيد الخاطر: ٢٦٤.

صـورٌ من التوبـة

قوافل التائبين تسير. . وجموع المنيبين تُقبل. . وباب التوبة مفتوح. ودعوةٌ تتلى من آيات القرآن الكريم: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾. [النور: ٣١].

دمـوع التائبين صادقة، وقلوبهم. . منخلعة. . يخافون يوماً: تتقلب فيه القلوب والأبصار.

قال **عمـر بن الخـطاب** ـ رضي الله عنـه ـ: اجلسـوا إلى التوابين، فإنهم أرق أفئدة[1].

وذكر أن **الفضيل بن عياض** كان شاطراً في قطع الطريق. وكان يتعشق جارية، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً، إذ سمع قارئاً يقرأ: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾. فقـال: بلى، فتـاب، وأقلع عما كان عليه، ورجع إلى خربـة، فبـات بها، فسمـع سفاراً يقول: خذوا حذركم؛ إن

(١) الإحياء: ٤/١٦.

فضيلاً أمامكم يقطع الطريق، فأمنهم واستمر على توبته، حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة، ثم صار علماً: يقتدى به، ويهتدى بكلامه، وفعاله[١].

خل الذنوب صغيرها
وكبيرها ذاك التُقى
واصنع كماشٍ فوق أر
ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة
إن الجبال من الحصى[٢]

قال إبراهيم بن بشار: قلت لإبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمرك؟ قال: غير ذا أولى بك، قال: قلت: أخبرني لعل الله أن ينفعنا به يوماً، قال: كان أبي من الملوك المياسير، وحبب إلينا الصيد، فركبت، فثار أرنبٌ أو ثعلب، فحركت فرسي، فسمعت نداءً من ورائي: ليس لذا خُلقت، ولا بذا أُمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحداً، فقلت: لعن الله

(١) البداية والنهاية: ١٠/٢٢٦.
(٢) بستان العارفين: ١٠٥.

إبليس، ثم حركت فرسي، فأسمع نداء أجهر من ذلك: يا إبراهيم ليس لذا خلقت، ولا بذا أمرت، فوقفت أنظر فلا أرى احداً، فقلت: لعن الله إبليس، فأسمع نداء من قربوس (حنو الفرس) سرجي بذاك، فقلت: انبهت، انبهت، جاني نذير، والله لا عصيت الله بعد يومي ما عصمني الله، فرجعت إلى أهلي، فخليت فرسي، ثم جئت إلى رعاة لأبي، فأخذت جبة كساء، وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، فعملت بها أياماً، فلم يصف لي منها الحلال، فقيل لي: عليك بالشام.

في الذاهبين الأولـ
ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ
ولا من الباقين غابر

أيقنت أني لا محالة
حيث صار القوم صائر[١]

قال سلام بن أبي مطيع: كن لنعمة الله عليك في دينك، أشكر منك لنعمة الله عليك في دنياك[٢].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قلة الذنوب، فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد، فليكف نفسه عن كثرة الذنوب[٣].

أخي الحبيب.. عليك بلزوم الطريق والسير على الجادة.

واتق الله فتقوى ما
جاوزت قلب امريء إلا وصل
ليس من يقطع طرقاً بطلاً
إنما من يتق الله البطل

كان الحسن يقول: نضحك، ولعل الله قد اطلّع على بعض

---

(١) تاريخ بغداد: ٢/٢٨١.
(٢) حلية الأولياء: ٦/١٨٨.
(٣) صفة الصفوة: ٢/٣٢.

أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئاً[١].

فالدنيا خداعة غدارة.. ترى منها الحُسنَ.. فتلهيك عن الدار الآخرة.. ثم يفجأك الموت على حين غفلة من أمرك..

فلا تغـرنـك الـدنـيـا وزيـنـتـهـا
وانـظر إلى فعلهـا في الأهـل والـوطن
وانـظر إلى من حوى الـدنيـا بأجمعها
هل راح منهـا بغـير الـزاد والـكفن[٢]

وتأمل ـ أخي ـ في قول **الحسن**: المؤمن من علم أن ماقال الله كما قال، والمؤمن: أحسن الناس عملاً، وأشد الناس وجلاً، فلو أنفق جبلاً من مال، ما أمن دون أن يعاين، لا يزداد صلاحاً وبرًّا إلا ازداد فرقاً، والمنافق يقول: سواد الناس كثير وسيغفر لي، ولا بأس عليّ، فيسيء العمل ويتمنى على الله[٣].

وكـان **الربيع بن خثيم** يقول لأصحابه: تدرون ما الداء، والدواء، والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء: الذنوب، والدواء:

---

(١) صفة الصفوة: ٣/٢٣٣.
(٢) موارد الظمآن: ٣/٤٩٢.
(٣) السير: ٤/٥٨٦.

الإستغفار، والشفاء: أن تتوب ثم لا تعود[١].

أخي الحبيب: جهاد النفس يحتاج إلى: صبر، ومثابرة، وخوفٍ، ووجل، ورجاءٍ، وأمل.. لا يُتهاون بالصغائر، ولا تؤتى الكبائر.

قال عمرو بن مرة: نظرت إلى امرأة فأعجبتني، فكف بصري فأرجو أن يكون ذلك كفارة[٢].

أين نحن من هؤلاء؟

أين من يطلق بصره على محارم الله ؟! من يتتبع الخطوات، ويلحظ المسلمات بعينٍ شرهة.. لا يكف بصره ولا يخاف ربه.

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها
من الحرام ويبقى الأثم والعارُ
تبقى عواقب سوء من مغبتها
لا خير في لذة من بعدها النارُ

قال أبو حازم **سلمة بن دينار** في نصيحة أخوية صادقة: انظر إلى الذي تحب أن يكون معك في الآخرة فقدمه اليوم، وانظر

---

(١) حلية الأولياء: ٢/١٠٨.
(٢) صفة الصفوة: ٣/١٠٦.

الذي تكره أن يكون معك ثم فاتركه اليوم[١].

أخـي المسلـم:

إذا مـا خلـوت يومـاً فلا تقـل
خلـوت ولـكـن قـل عليَّ رقـيـبُ
ولا تحسـبـن الله يغـفـل مـا مضـى
ولا أن مـا تخفـي عليـه يغـيـب
لهونـا عـن الأيـام حتـى تتـابعـت
ذنـوبٌ علـى آثـارهـن ذنـوب

قال **مالك بن دينار** ـ رحمه الله ـ: رأيت في البادية في يوم شديد البرد شاباً عليه ثوبان خلقان، وعليه آثار الدعاء وأنوار الإجابة، فعرفته، وكنت قبل ذلك عهدته في البصرة: ذا ثروة، وحسن حال، وكان ذا مالٍ وآمال.

قال: فبكيت لما رأيته على تلك الحال، فلما رآني بكى وبدأني بالسلام، وقال لي: يا مالك بن دينار: ما تقول في عبد أبق من مولاه؟ فبكيت لقـولـه بكاءً شديداً، وقلت له: وهل يستطيع المسكيـن ذلـك؟ البلاد بـلاده، والعبـاد عبـاده، فأين يهـرب؟

---

(١) حلية الاولياء: ٣/٢٣٨.

فقال: يا مالك سمعت قارئاً يقرأ: ﴿**يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**﴾. فأحسست في الحال بنار وقعت بين ضلوعي، فلا تخمـد، ولا تهدأ من ذلك اليوم، يا مالك.. أتراني أرحم وتطفأ هذه الجمرة من قلبي؟

فقلت له: أحسن الظن بمولاك، فإنه غفورٌ رحيم، ثم قلت لـه: إلى أين؟ قال: إلى مكـة شرفها الله تعالى لعلي ممن أكون إذا ألتجأ إلى الحرم أستحق مراعاة الذمم.

قال مالك: ففارقني ومضى، فتعجبت من وقوع الموعظة منه موقعها، وما تأجج بين جنبيه من نار التيقظ والإنابة، وما حصل عليه من صدق القبول وحسن الاستماع[١].

فحي على جنـات عـدن فانهـا
منـازلـك الأولى وفـيـهـا المخيـم
ولـكـنـنـا سبـى العـدو فهـل تـرى
نعـود إلـى أوطـانـنـا ونـسـلـم[٢]

أخـــي.. طال بنا الأمل.. ومضى بنا التسويف.. فماذا ننتظر لنتوب؟

---

(١) العاقبة: ٧٢.
(٢) عقود اللؤلؤ: ٣٣.

وحالنا وتسويفنا حكاه **أبو حازم** بقوله:

نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت[١].

لهونـا الأيـام حتـى تتـابـعـت
ذنـوب علـى آثـارهـن ذنـوب
فيـاليـت أن يغـفـر الله مامـضـى
ويـأذن لـي فـي توبـةٍ فأتـوب[٢]

قال **يونس بن سليمان البلخي**. . كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والجنائب والبزاة، فبينما إبراهيم في ذلك اليوم وهو على فرسه يركضه، إذا بصوت من فوقه. . يا إبراهيم ماهذا العبث؟ ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾. اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة.

قال: فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة[٣].

وقـال **الفضيـل بن عياض** لرجل: كم أتت عليك؟ قال:

---

(١) أدب الدنيا والدين: ١٠٩.
(٢) حلية الأولياء: ٩/ ٢٢٠.
(٣) صفة الصفوة: ٤/ ١٥٢.

ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال الفضيل: أتعرف تفسيره!؟ تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول، فليعد للسؤال جواباً، فقال الرجل: فما الحيلة؟

قال: يسيرة.. تُحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وما بقي[1].

أرأيت ـ أخي ـ هذا الفضل العظيم والإحسان الجزيل.. فالتوبة تَجُبّ ما قبلها.

بلغت من عمري ثمانينا
وكنت لا آمل خمسينا
فالحمد لله وشكراً له
إذ زاد في عمري ثلاثينا
وأسأل الله بلوغاً إلى
مرضاته آمين آمينا[2]

(١) جامع العلوم: ٤٦٤.
(٢) تاريخ بغداد: ٢١١/٥.

قال **عبدالرحمن بن يزيد بن جابر**: كان عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية ـ خلاً لعبدالملك بن مروان، فلما مات عبدالملك بن مروان وتصدع عن قبره، وقف عليه، فقال: أنت عبدالملك الذي كنت تعدني فأرجوك، وتوعدني فأخافك، أصبحت وليس معك من غير ثوبين، وليس لك منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين، ثم انكفأ إلى الله، واجتهد في العبادة، حتى صار كأنه شن بال، فدخل عليه بعض أهله، فعاتبه في نفسه وإضراره بها، فقال للقائل: أسألك عن شيء تصدقني عنه؟ قال: نعم، قال: أخبرني عن حالتك التي أنت عليها، أترضاها لنفسك؟ قال: اللهم لا، قال: أفعزمت على الانتقال منها إلى غيرها، قال: ما انتصحت رأي في ذلك، قال: أفتأمن أن يأتيك الموت على حالك التي أنت عليها؟ قال: اللهم لا.

قال: حال ما أقام عليها عاقل، ثم أنكفأ إلى مصلاه.

لبست ثوب الدجى والناس قد رقدوا
وبتُّ أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت: يا أملي في كل نائبة
ومن عليه لكشف الضرِّ أعتمد

أشكو إليك أموراً أنت تعلمها
مالي على حملها صبرٌ ولا جلد
وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً
إليك ياخير من مدت إليه يد
فلا تردنها يارب خائبة
فبحر جودك يروي كل من يردِ[1]

دخل لص على مالك بن دينار فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا، فترغب في شيءٍ من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل، ثم جلس وخرج إلى المسجد، وخرج، فسُئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق، فسرقناه[2]!!

قال مطرق بن عبدالله: لأن أبيت نائماً، وأصبح نادماً: أحب إليَّ من أن أبيت قائماً، وأصبح معجباً[3].

نسير إلى الله في توبة صادقة وبقلبٍ وجل.. عسى الله أن يرحمنا.

---

(١) عقود اللؤلؤ: ٢٥١.
(٢) السير: ٥/٣٦٣.
(٣) السير: ٤/١٩٠.

يـارب إن عظمـت ذنـوبـي كثـرة
فلقـد علمـت بـأن عفـوك أعـظـمُ
إن كـان لا يرجـوك إلا محسـنٌ
فمـن الـذي يدعـو ويـرجـو المـجرم
أدعـوك رب كمـا أمـرت تضرعـا
فـإذا رددت يـدي فمـن ذا يرحـم
مالـي إلـيـك وسيلـة إلا الـرجـا
وجمـيـل عفـوك ثـم إنـي مسلـم[1]

أخي . . أين نحن من تذكر ذنوبنا وأن ما أصابنا هو بسبب ذنـوبنا!؟ فقد أغلظ رجل لوكيـع بن الجراح، فدخل بيته، فعفر وجهه في التراب، ثم خرج إلى الرجل، فقال: زد وكيعاً بذنبه، فلولاه ما سُلطت عليه[2].

وقـال ابن سيرين: إني لأعـرف الذنب الذي حُمل به عليَّ الدَّين ماهو، قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس[3].

---

(١) صفة الصفوة: ٣/١٧١، جامع العلوم والحكم: ٤٧٧.
(٢) صفة الصفوة: ٣/١٧١.
(٣) صفة الصفوة: ٣/٢٤٦.

رحمهم الله ـ لقلة ذنـوبهم ـ عرفوا من أين يؤتون.. ونحن لكثرة ذنوبنا لا نحصي.. ولا نتذكر..!!

قال **عبـدالرحمن بن يزيد بن جابر**: قلت **ليزيد بن مرثد**: مالي أرى عينك لا تجف؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله أن ينفعني به، قال: يا أخي إن الله قد توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو لم يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريًّا أن لا تجف لي عين، فقلت له: فهكـذا أنت في خلواتك؟ قال: وما مسألتك عنه، قلت: عسى الله أن ينفعني به، فقـال: والله إن ذلـك ليعرض لي حين أسكن إلى أهلي، فيحول بيني وبين ما أريد، وإنه ليوضع الطعام بين يدي فيعرض لي، فيحول بيني وبين أكله، حتى تبكي امراتي ويبكي صبياننا، ما يدرون ما أبكانا[1].

قـدم لنـفسـك في الحيـاة تـزوداً
فلقـد تُفـارقـهـا وأنـت مُـودعُ
واهـتـم للسـفـر الـقـريـب فإنـه
أنـأى مـن الـسـفـر البعيـد وأشسـعُ

---

(١) حلية الأولياء: ٥/١٦٤.

واجعـل تـزودك المخـافـة والتُقـى
وكـأن حتـفـك من مسـائـك أسرع[١]

قال ابن سيرين: إذا أراد الله ـ عزّ وجل ـ بعبده خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه[٢].

أخـي الحبيـب:

خـذ مـن شبـابـك قبـل المـوت والهـرم
وبـادر التـوب قبـل الفـوت والنـدم
واعـلـم بأنـك مجـزيٌ ومـرتهـن
وراقـب الله واحـذر زلـة الـقـدم[٣]

القلوب التائبة منكسرة بين يدي الله.. تسبقها الدمعة.. ويحدوها عفو الله وسعة كرمه.. وهي قلوب قال عنها عوف بن عبدالله: قلب التائب بمنزلة الزجاجة يؤثر فيها جميع ما أصابها، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة، وهم إلى الرقة أقرب، فداووا القلوب بالتوبة، فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتى

(١) ديوان الإمام علي: ١٢٩.
(٢) صفة الصفوة: ٣/٢٤٣.
(٣) ترتيب المدارك: ٢/٤٦١.

أوفدته عليها، وجالسوا التوابين، فإن رحمة الله إلى التوابين أقرب[١].

وقال **الفضيل بن عياض**: كل حزن يبلى.. إلا حزن التائب[٢].

إلهـي لا تعذبني فإنني
مقرٌ بالذي قد كان مني
ومالي حيلة إلا رجائي
وعفوك إن عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا
وأنت عليَّ ذو فضلٍ ومنِّ

يقول ابن الجوزي:

ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه، وإن تاب منها، وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمر غائب، ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها.

فالحذر الحذر من كل مايوجب خجلاً.

(١) صفة الصفوة: ٣/١٠٤.
(٢) حلية الأولياء: ٨/١٠١.

وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد، لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة.. وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل[١].

قال **سلمان الفارسي**: إذا أسأت سيئة في سريرة فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة في علانية. فأحسن حسنة في علانية، لكي تكون هذه بهذه[٢].

أخي المسلم:

من نعم الله علينا أن طريق التوبة مفتوح.. ليس عليه حُجَّابٌ ولا دونه أبواب..

إنه باب: أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، غافر الذنب، وقابل التوب..

قال **أحمد بن عاصم الأنطاكي**: هذه غنيمةٌ باردة، أصلح مابقي من عمرك، يغفر لك مامضى[٣].

فالحمد لله الذي أمهلنا ومن العيوب سترنا.. وإلى بابه: باب التوبة سيرنا..

---

(١) صيد الخاطر: ٥٠٢.

(٢) صفة الصفوة: ١/٥٤٨.

(٣) الزهد للبيهقي: ٢٢٨.

قدم لنفسك توبة مرجوةً
قبل الممات وقبل حبس الألسن[١]

قال **بعض السلف**: كان داود ـ عليه السلام ـ بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال **سعيد بن جبير**: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب إليه منها[٢].

وقال **مالك بن دينار**: إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه: طعام، ولا شراب، ولا نوم، ولا راحة. وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة[٣].

أخي:

أقبل على صلواتك الخمس
كم مصبح وعساه لا يُمسى

---

(١) التذكرة: ٥٣.
(٢) تسلية أهل المصائب: ٢١٨.
(٣) حلية الأولياء: ٢/٧٦٣.

واستقبـــل اليـــوم الجـديـــد بتـوبـــةٍ
تمحـــو ذنـــوب صحيـفـــة الأمـــس
فليفعلـــن بوجهـــك الغـــضِّ البلـــى
فِعـــل الظـــلام بصـــورة الشمـــس[1]

إذا عزم العبد على السفر إلى الله ـ تعالى ـ وإرادته عرضت له الخـوادع والقـواطع، فينخدع أولاً: بالشهوات، والرياسات، والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه، ابتُلِيَ: بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارَة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك، فإن وقف معه، انقطع به عن الله، وكان حظَّه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي: بالكرامات، والكشوفات، فإن وقف معها، انقطع بها عن الله وكان حظه، وإن لم يقف معها ابتـلي: بالتجـريد، والتخـلي، ولـذة الجمعية، وعزة الوحدة، والفراغ من الدنيا. فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود[1].

وطريق التائب طريق فيه مشقة، وتحفه المزالق والشهوات،

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٩٧.

(٢) الفوائد: ٢٢٣.

ولكنه يسير إلى رب غفور كريم.

الحسنة عنده بعشرة أمثالها، أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان. والسيئة عنده بواحدة، ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفورٌ شكور. . بابه الكريم مناخ الآمال، ومحط الأوزار، وسماء عطاء لا تقلع عن الغيث، بل هي مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار. . إن ربنا لغفور شكور[١].

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، واشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، إن ربنا لغفورٌ شكور[٢].

يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
وأنت يا حي يا قيوم لم تنم

---

(١) عدة الصابرين: ٣٤٠.
(٢) عدة الصابرين: ٣٣٩.

هـب لـي بجودك ما أخطـأت مـن جـرم
يـا مـن إلـيـه أشـار الخلـق بالـكـرم
إن كـان عفـوك لـم يسـبـق لمجـتـرم
فمـن يجـود علـى العـاصيـن بالنعـم[1]

ألقى الله ـ سبحـانـه ـ العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعـداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب، وابتلي العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمدَّ كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالاً[2].

فشمر ـ أخي الحبيب ـ عن همتك.. وبادر نفسك.. فإننا كما قال **معاذ بن جبل**: إن المؤمن لا يسكن روعه، حتى يترك جسر جهنم وراءه[3].

تفـكـرت فـي حشـري ويـوم قيـامـتـي
وإصـبـاح خـدي في المـقـابـر ثاويـا
فريـداً وحـيـداً بعـد عـز ومـنـعـةٍ
رمـينـا بجـرمـي والتـراب وسـاديـا

(١) عقود اللؤلؤ: ١٩٧.
(٢) الفوائد: ٧٨.
(٣) الإحياء: ٤/١٩٨.

تفكـرت فـي طـول الحسـاب وعرضـه
وذل مقـامـي حيـن أُعـطـي حسابيـا
ولكـن رجائـي فيـك ربـي وخالقـي
بأنـك تعـفـو يا إلهـي خطائـيـا

والله تعـالى يبتـلي عبده المؤمن بما يتوب منه. . ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والإجتهاد في العبادة مالم يحصل بدون التوبة، كمن ذاق الجوع والعطش، والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه، والحذر أن يقع فيما حصل أولاً مالم يحصل بدون ذلك[1].

* عاد حمـاد بـن سلمـة **سفيـان الثـوري**، فقـال سفيان: يا أبا سلمـة: أتـرى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي، لأخذت محاسبة الله، وذلك لان الله أرحم بي من أبوي.

قال **خالد بن معدان** مهيباً لاغتنام الفرص واستثمار الأوقات:

(١) مجموع الفتاوى: ١٥/٥٥.

إذا فتح لأحدكم باب خير، فليسرع إليه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه[١].

إذا هبـت ريـاحُـك فاغـتـنـمـهـا
فـإن لكـل خافـقـة سكـون
ولا تغـفـل عـن الإحسـان فيـهـا
فمـا تـدري السكـون متـى يكـون
وإن دَرَّت نيـاقـك فاحـتـلبـهـا
فما تـدري الـفصيـلُ لمـن يكـون[٢]

قال يحيى بن معاذ.. لا تستبطيء الإجابة، وقد سددت طريقها بالذنوب[٣].

الله يغـضـب إن تركـت سؤالـه
وابـن آدم حيـن يسـأل يغضـب[٤]

يا أرحم الراحمين نرفع أيدي التوبة.. ونستغفرك من كل

---

(١) حلية الأولياء: ٥/٢١١، السير: ٤/٥٤٠.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٢٠٢.
(٣) السير: ١٣/١٥.
(٤) عقود اللؤلؤ: ٢٨٣.

ذنوبنا فنحن من التائبين العائدين . . قلوب تخفق وعيون تدمع .

أسير الخطايا عند بابك يقرع
يخاف ويرجو الفضل فالفضل أوسع
مقرٌ بأثقال الذنوب ومكثرٌ
ويرجوك في غفرانها فهو يطمع
فإنك ذو الإحسان والجود والعطا
لك المجد والأفضال والمن أجمع
فكم من قبيح قد سترت عن الورى
وكم نعم تترى علينا وتتبع
ومن ذا الذي يرجى سواك ويتقي
وأنت إله الخلق ماشئت تصنع[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الذي يضر صاحبه هو مالم يحصل منه توبة، فأما ماحصل منه توبة، فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة، كما قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة أحسن منه حالاً قبل الخطيئة، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر، فإن السابقين الأولين من المهاجرين

(١) موارد الظمآن: ١/٥٤٧.

والأنصـار هم خيار الخليقـة بعد الأنبياء، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب، ولم يكن ماتقدم قبل التوبة نقصاً ولا عيباً، بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيماناً، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم، فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها[1].

والمؤمن إذا فعل سيئة فإن **عقوبتها تندفع بعشرة أسباب:**

أحدها: أن يتوب توبةً نصوحاً ليتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الثاني: أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له.

الثالث: أن يعمـل حسنـات يمحـوهـا لقـوله تعالى: ﴿**إن الحسنات يُذهبن السيئات**﴾.

الرابع: أن يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيًّا وميتاً.

الخامس: أن يهدي له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

السادس: أن يشفع فيه نبينا محمد ـ ﷺ ـ.

السابع: أن يبتليه الله في الدنيا بمصائب في نفسه وماله وأولاده

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٥/٥٣.

وأقاربه ومن يحب ونحو ذلك.

الثامن: أن يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة، وهي عصر القبر، فيكفر بها عنه.

التاسع: أن يبتليه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

العاشر: أن يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة، فلا يلومن إلا نفسه، كما قال تعالى في الأحاديث الإلهيات: «**إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم (ثم أوفيكم إياها) فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»[1].

يا أهل لذة لهوٍ لا تدوم لهم
إن المنايا تبيد اللهو واللعب
كم من رأيناه مسروراً بلذته
أمسى فريداً من الأهلين مغتربا[2]

قال **يحيى بن معاذ**: مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون

(١) تسلية أهل المصائب: ٢١٨.
(٢) شرح الصدور: ٢١٧.

عليه من ترك الأوزار[١].

أخـي الحبيـب: الأيام تمر والساعات تسير. . ونحن في رحلة إلى الـدار الآخرة قد بدأت. . فوقتك هو رأس مالك. . فإضاعة الـوقت أشـد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

كيف ـ يا أخي ـ يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة[٢].

أخـي الحبيـب:

فيـالـيـت أن الله يغـفـر مامـضـى
ويـأذن فـي توبـاتـنـا فنـتـوب[٣]

أخـي المسلـم:

وانت في طريق التوبة تلمس علامات صحة التوبة في أمور خمسة:

أولا: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

---

(١) السير: ١٣/ ١٥.

(٢) الفوائد: ٤٥.

(٣) موارد الظمآن: ٢/ ٩٤.

ثانيا: أن لا يزال الخوف مصاحباً له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع البشرى تأتيه ﴿**ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾. [فصلت: ٣٠].

ثالثا: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عظم الذنب.

رابعا: انكسار، وذل، وخضوع بين يدي الله.

خامسا: الازدياد في الأعمال الصالحة والمداومة عليها.

* قال **يحيى بن معاذ**: للتائبين فخرٌ لا يعادله فخر، فرح الله بتوبته..

أخي الحبيب:

حان وقت التوبة والرجوع.. والإيمان والخشوع والندم والدموع، فأسكب العبرات، وادع رب الأرض والسموات..

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي
جعلت رجائي نحو بابك سلما
تعاظمني ذنبي، فلما قرنته
بعفوك ربي كان عفوك أعظما

الخاتمـــة

ختم الكتـاب بـاب في سعة رحمة الله ـ تعالى ـ على سبيل التفاؤل بذلك.

فقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يحب الفأل، وليس لنا من الأعمال مانـرجـو به المغفـرة، فنقتدي برسول الله ـ ﷺ ـ في التفاؤل، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله ـ تعالى ـ فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء**﴾ وقال ـ تعالى ـ: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**﴾ وقال ـ تعالى ـ: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾. ونحن نستغفر الله ـ تعالى ـ من كل مازلت به القدم أو طغى به القلم. ونستغفـره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه

غيره، ونستغفره من كل وعد وعدنا به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فأستعملناها في معصيتـه، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزيناً للناس بها[1].

أخـي الحبيـب :

جعلني الله وأياك من أهل التوبة والعودة والرجوع والأوبة..

وجمعني وأياك ووالدينا وأحبابنا في جنات عدن فيها مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) الإحياء: ١/٥٧٨.

المصادر

(١) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.
(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي ـ دار الكتب العلمية.
(٣) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ـ مطبعة المتوسط.
(٤) بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، تحقيق محمد الحجار.
(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ـ دار الكتب العلمية.
(٦) التبصرة، لابن الجوزي ـ دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.
(٧) تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.
(٨) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض، ط ١٤٠٧هـ.
(٩) التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع ط٢، ١٤٠٧هـ.
(١٠) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض ـ مكتبة الحياة.
(١١) تزكية النفوس، جمع د. أحمد مزيد، دار القلم، بيروت.
(١٢) تسلية أهل المصائب لأبي عبدالله محمد بن محمدالنبجي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.
(١٣) جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي ط٥ ـ ١٤٠٠هـ.
(١٤) جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي ـ تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير ١٤١٠هـ.

(١٥) الجواب الكافي لابن قيم الجوزية ـ تحقيق أبي حذيفة ـ دار الكتاب العربي ط١ ـ ١٤٠٧هـ.
(١٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم ـ دار الكتاب العربي.
(١٧) الحسن البصري لابن الجوزي.
(١٨) ديوان الامام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.
(١٩) ديوان الإمام الشافعي ـ دار الجيل ـ بيروت ط٣ ١٣٩٢هـ.
(٢٠) كتاب الزهد الكبير، للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط٢، ١٤٠٣هـ.
(٢١) كتاب الزهد للإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.
(٢٢) الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد بن يوسف الجرزي، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي ط١، ١٤٠٦هـ.
(٢٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، تحقيق شعيب الارناؤوط وحسين الأسد مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.
(٢٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار إحياء التراث العربي.
(٢٥) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.
(٢٦) صفة الصفوة لابن الجوزي ـ تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس ـ دار المعرفة ـ ١٤٠٥هـ.
(٢٧) صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.
(٢٨) طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية.

(٢٩) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي السبكي، دار إحياء الكتب العربية.
(٣٠) العـاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبدالحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى ط١، ١٤٠٦هـ.
(٣١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عثمان، دار الكتاب العربي ط٢، ١٤٠٦هـ.
(٣٢) عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.
(٣٣) مجموع فتاوى ابن تيمية جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير ط١، ١٣٩٨هـ.
(٣٤) الفوائد لابن القيم ـ دار النفائس.
(٣٥) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ط٢، ١٤٠٨هـ.
(٣٦) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية ـ مكتبة الرياض الحديثة.
(٣٧) مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.
(٣٨) منهاج القاصدين. لأبن الجوزي.
(٣٩) موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ.
(٤٠) واحات الإيمان لعبدالحميد البلالي، دار الدعوة ط٤، ١٤٠٩هـ.
(٤١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	
وجوب التوبة	٣
قسوة القلب	٦
مرض القلوب	٨
يامن عزم على السفر	١٣
الداء والدواء	١٦
المؤمن يحاسب نفسه	٢٢
علامات السعادة	٢٤
جهاد النفس	٢٨
منادي الإيمان	٣٢
أصول المعاصي	٣٣
الهمة العالية	٣٧
النار وأغلالها	٤٠

أضرار الذنوب ٤٤
الذنوب جراحات ٤٨
نصح المذنب ٤٩
المحافظة على الأعمار ٥٣
سبب دخول جهنم ٥٧
صور من التوبة ٦٥
إذا عزم على السفر ٨٣
بماذا تندفع عقوبة السيئة ٨٩
الخاتمة ٩٣